﴿وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدًا ٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ١٠﴾ [النّساء: 9 - 10]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهُما:

الـــرّبـــط بـين الـتّـــقـــوى في الـحـفـاظ على حقوق اليتامى، وجـزائـه بحفظ أبنائه من بعده

بين هاتين الآيتين وما سبقهما تناسبٌ جليٌّ، وترابطٌ لطيفٌ، جاء موعظةً لكلٍّ من حُذِّر أو رُغِّب في الآيات السّابقة، في شأن أموال اليتامى، وأموال الضُّعفاء من النِّسَاء والصِّبيان، فمن يخش الله في حقوق يتامى الآخرين، فسوف يجازيه الله بحفظ أبنائه من بعد وفاته، وفيها ترهيبٌ من أكل أموال اليتامى، بذكر العقاب الشّنيع لمن يظلم اليتيم في ماله، بنار مستعرة شديدة الإحراق، يصطلي بدنه بحرقها، ويلتهب بطنه بجمرها، كناية عن شدّة العذاب، وتصويرًا لسوء المصير، وتأكيدًا على رحمة الله تعالى باليتامى؛ لأنَّهم لمّا بلغوا في الضّعف إلى الغاية القصوى، بلغت عناية الله تعالى بهم إلى مثل ذلك[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَلۡيَخۡشَ﴾: من خَشِيَ الرَّجُلُ يَخشَى خَشية، أَي: خافَ، والخشية: خوفٌ يشوبُه تعظيمٌ، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يُخشى منه[2]، و"الخشية تألّم القلب، بسبب توقُّع مكروه في المستقبل، يكون تارةً بكثرة الجناية من العبد، وتارةً بمعرفة جلال الله وهيبته، وخشية الأنبياء من هذا القبيل"[3]، وكذلك خشية

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 9/506، و(بتصرّف).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (خشي)، والراغب، المفردات: (خشي).
(3) الجرجانّي، التّعريفات، ص: 98.

العلماء، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: 28]، والخشية محمودة في كلِّ مواضعها، وتكون من عظم المخشِيّ منه، وإن كان الخاشي قويّاً؛ لذا كانتِ الخشية في الرّسل زينة لهم، فامتدحها الخالق سبحانه بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: 39][1].

2) ﴿ذُرِّيَّةَ﴾: الذُّرِّيَّةُ نَسلُ الرَّجُل وما توالدَ منه ومِن أبنائِهِ وبناتِهِ، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الصّافات: 77]، قال بعضهم: ذريّة هي فُعلية من ذررت، لأنّ الله تعالى ذَرَّهم في الأرض: أي نشرهم فيها[2]، وأصل الذّريّة (ذرأ) بالهمز، لكنّهم حذفوه فلم يستعملوها إلّا غير مهموزة، وتجمع على ذريّات، وذراريّ مشدّدًا[3]، وقال بعض النّحويين: " أصلها ذرُورة على فعلولة، ولكنّ التّضعيف لمّا كثر، أبدل من الرّاء الأخيرة ياء، فصارت ذروية، ثمّ أدغمت الواو في الياء فصارت (ذريّة)، قال الأزهريّ: وقول من قال إنّه فعليّة أقيس وأجود عند النّحويين"[4]، والمقصود في الآية الكريمة، هو إظهار الله تعالى ما أبداه، يُقال: ذَرَأَ الله الخلق، أي: أوجد أشخاصهم، والذُّرِّيَّة أصلها: الصّغار من الأولاد، وإن كان قد يقع على الصّغار والكبار معًا في التّعارف، ويُستعمل للواحد والجمع، وجَمعُها ذَراريُّ[5]، ولفظ الذّريّة أجمع في المعنى، من ذكر الذّكر وحده والأنثى وحدها، وتنكيرها أبلغ في الدّلالة على الذّرية المتروكة ذكرانًا وإناثًا، بعد رحيل الأب عن الدّنيا.

3) ﴿ضِعَٰفًا﴾: من ضعُف، والضُّعْف: خلاف القوّة، ويُقال: الضَّعفُ في العقل والرّأي، والضُّعفُ في الجسد، ويُقال: رجالٌ ضِعافٌ، كما يُقال خِفافٌ[6]، وفي الآية الكريمة قصد بالضِّعاف الأولاد الصّغار[7]، وهو على وزن (فِعَال)، "وكلّ ما في القرآن من الفعل (ضَعُف) و(اسْتَضْعَفَ) ومضارعه للفاعل والمفعول، وكلمة (ضَعْف) بالفتح، والصّفة (ضعيف)، وجمعها (ضِعاف) و(ضُعفاء) وكذلك صفة التّفضيل (أضعف)، واسم

(1) الزّركشّي، البرهان: 4/78.
(2) نشوان الحميريّ: شمس العلوم: (ذُرِّيّة).
(3) ابن الأثير: النّهاية: (ذرر).
(4) الزَّبيديّ: تاج العروس: (ذرر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذرأ).
(6) الخليل، العين: (ضعف).
(7) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/376.

المفعول (مُستضعَف) وجمعها كلّ ذلك من الضّعف: عدم القوّة"[1]، والضِّعْفُ من الألفاظ المُتضايفة الّتي يقتضي وجود أحدهما وجود الآخر، كالنّصف والزّوج، وهو تركّب قدْرين مُتَساويين، ويختصّ بالعدد، فإذا قيل ضَعَّفتُ الشّيء، وضَاعَفتُهُ: ضمَمتُ إليه مثلَه فصاعدًا[2].

4) ﴿سَدِيدًا﴾: جذرها سدد، يُقال: سَدَّدهُ تَسديداً: قوَّمَه، ووفَّقَهُ للسَّداد، أي: الصَّواب من القَولِ والعملِ، وسَدَّ يَسِدُّ: صار سديداً، والسِّدَادُ: ما يُسَدُّ به الثّغر، واستُعير لما يُسَدُّ به الفقرُ، واستَدَّ: استَقامَ، والسَّدَدُ: الاستِقامَةُ[3]، والسَّدَادُ بالفتح: الاستقامة والصّواب، وكذلك السَّدَدُ مقصور منه، قال الأعشى:

مَاذَا عَلَيْهَا وَمَاذَا كَانَ يَنْقُصُهَا *** يَوْمَ الْتَّرَحُّلِ لَوْ قَالَتْ لَنَا سَدَدَا[4]

وقوله تعالى: ﴿وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾، أي: مستقيمًا من السّداد، وهو ما يُسدُّ به من الخلل، وكلّ ما سددته من ثلمةٍ ونحوها، فهو مسدودٌ، وما كان من المعاني والأقوال، فهو مفتوح السّين، وتأتي لفظة ﴿سَدِيدًا﴾ بمعنى صواباً، يُقالُ: قُلْ قَولًا سَدَداً وسَداداً وسَديداً، أَي: صَوَابًا[5]، والسّدادُ مِنَ القول، والتَّسديدُ: التّوفيقُ للسَّداد، وهو الصَّواب والقَصد مِنَ القول والعمل، ورجُلٌ سديدٌ وأَسَدُّ: مِنَ السَّداد وقَصد الطَّريق، وسدَّده الله: وفَّقَهُ، وأَمر سديدٌ وأَسَدُّ، أَي: قاصدٌ[6]، وقوله ﴿سَدِيدًا﴾ صفة للفظ ﴿قَوْلًا﴾، وهو الأجلى والأبلغ في الدّلالة على حسن القول، وجميل الملفوظ، ممّا يؤكّد أدب الإسلام في قول الحسن من الكلام، مهما كان الظّرف والمقام.

5) ﴿وَسَيَصْلَوْنَ﴾: من صلا، وأصل الصَّليُ الإيقادُ بالنّار، ويُقال: صَلِيَ بالنّار، أي: بلي بها، واصطَلى بها، ويأتي الصَّلا بمعنى الحَطَبُ، وبمعنى النّار، وهو اسمٌ للوَقود إذا اصطَلى به القوم، "يقال: صليت الرّجل نارًا إذا أدخلته النّار، وجعلته يصلاها، فإن

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (ضعف).
(2) الراغب، المفردات: (ضعف).
(3) الراغب، المفردات: (سد)، الفيروزابادي، القاموس المحيط: (سدّ).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (سدد)، والزّمَخْشري، أساس البلاغة: (سدد).
(5) السّمين، عُمدة الحفّاظ: 2/183.
(6) ابن منظور، لسان العرب: (سدد).

ألقيته فيها إلقاء كأنّك تريد الإحراق قلت أصليته، بالألف، وصليته تصلية"[1]. والمِصلاةُ أن تنصِبَ شَرَكاً ونحوه ليَقَعَ فيه شيءٌ فيُصطاد، وتقول: صَلَيتُ، أي: نَصَبتُ المِصلاةَ، وتجمع مَصالي، والصّاليات: الأَثافيُّ، لأنَّهنَّ قد صَلِينَ النّارَ، وصَلِيَ فلانٌ بشَرٍّ فلانٍ وبرَجُل سُوءٍ، وفلانٌ لا يُصطَلَى بناره، أي: لا يُتَعَرَّض لحَدِّه، وصَلَّى عَصاه إذا أدارَها على النّار يُثقّفُها[2]، فالمعنى المحوريّ للّفظة هو التّليين بمعنى اللّين الّذي ينتج عن صَلْيِ الشّيء في النّار، ليُحدِث ليناً أو رخاوة من الدّاخل مع تماسك ما، فيمكن التّصرف فيه: مثل تليين اللّحم والعصا، بتعريضها للنّار، فيمكن بذلك تقويمها إن كانت معوجّة، ويمكن أيضًا ثَني طرفها، ليكون مَقْبِضًا لها[3].

6) ﴿سَعِيرًا﴾: من سعر، السِّين والعين والرَّاء، أَصلٌ واحدٌ يدُلُّ على اشتعال الشَّيءِ واتِّقاده وارتفاعه، مِن ذلك السَّعيرُ: وهو سعيرُ النَّار، واستعارها: توقُّدُها، والمِسعَرُ: الخشبُ الَّذي يُسعَرُ به، والسُّعارُ: حرُّ النَّار[4]، وسَعَرتُ النَّار وأَسعَرتُها، فهي مُسعَرَةٌ ومَسعورَةٌ[5]، والسَّعيرُ: النَّارُ المُسَعَّرَةُ، أَي: المُلتهبةُ، على وزن فعيلٌ بمعنى مَفعولٌ، بُنِي بصيغة المُجرَّد، ومنه قوله تعالى: ﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾، ومن المجاز: " ضربه السُّعار، وهو حرّ اللّيل وبه سُعار، وهو توهّج العطش، وسُعِر الرّجل: ضربَته السَّموم فهو مسعور، وسعَرواْ نار الحرب، وسعَر على قومه وسعَرَهم شرّاً"[6]، والسّعر في البياعات: الثّمن، وهو مأخوذٌ من استعار النّار على التّشبيه[7]، واستعمال لفظ ﴿سَعِيرًا﴾، تهويل لجريمة أكل أموال اليتامى، وتخويف من مغبّة الاعتداء على ما يحوزه اليتيم، حماية له من غوائل الزّمان، وعدوان الإنسان.

7) ﴿يُوصِيكُمُ﴾: جذرها (وصي)، " الواو والصَّاد والحرف المعتلُّ: أَصلٌ يدُلُّ على وَصلِ شيءٍ بشيءٍ، ووصَيتُ الشَّيءَ: وصَلتُهُ، ويُقالُ: وَطِئنَا أَرضًا واصيةً، أَي: إِنَّ نَبتَها

(1) ابن منظور، لسان العرب: (صلا).
(2) الخليل، العين: (صلو)، والراغب: المفردات: (صلا).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (صلو)، (صلى).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سعر).
(5) ابن دريد، جمهرة اللغة: (رسع).
(6) الزّمَخْشري، أساس البلاغة: (سعر).
(7) السّمين، عمدة الحفّاظ: 2/200.

مُتَّصِلٌ قدِ امتلأَت منه"[1]، والوَصِيَّةُ ": التّقدّمُ إلى الغير بما يعملُ به مُقترِنًا بوعظٍ من قولهم: أرض وَاصِيَةٌ: متّصلةُ النّبات، ويقال: أَوصاهُ ووصَّاهُ"[2]، و"المعنى المحوريّ التزام الأشياء بعضها بعضًا، كالمحزوم بالجريد والنّبات الملتفّ، وكالمتّصل بعضه ببعض منه إذ هو متضامّ، ومن هذا الالتزام جاء معنى الإيجاب في الوصيّة، فهي عهد وتكليف وإلزام"[3]، من هنا وردت لفظة يُوصِيكم، في قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ﴾ أي: "يفرض عليكم، لأنّ الوصيّةَ من الله ﷻ فرضٌ، والدّليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ [الأنعام: 151]، وهذا من المحكم علينا[4]، وتوجيه الخطاب إلى الوالدين بالوصيّة بالأولاد، تأكيد لما تفرضه الغريزة الأبويّة من حبّ للأولاد أصيل، يراد له أن يتجلّى في الوصيّة، بصورة تضمن العدل بين الأبناء، وتعطي لكلّ ذي حقّ حقّه.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

جاءت هاتان الآيتان الكريمتان: ترهيبًا من أكل أموال اليتامى بالعقوبة بالمثل،

من خاف ضياع أبنائه بعده، فليتّق الله، فكما يدين الفتى يدان

فجاءتِ الأولى، لتأمر كلَّ من يطاله الخطاب من الأوصياء وغيرهم[5]، بأنْ يخشَواْ اللّه تعالى ويتّقوه، في أمر اليتامى وأموالهم، فيفعلواْ بهم، مِثل ما يحبُّون أن يُفعَل بذرّيَّتهم الضِّعافِ بعدَ موتهم، ثم تأتي الآية الثّانية لتتوعَّد المخالفين الّذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا، " سواء أكان الآكل من الورثة، أم من أولياء السّوء من غيرهم، واللّفظ لكمال التّشنيع على الآكلين، لأنّهم يظلمون اليتامى الضّعفاء الّذين ليس في قدرتهم الدّفاع عن أنفسهم"، وهم لا يعلمون أنّهم

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وصي).
(2) الراغب، المفردات: (وصى).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (وصى).
(4) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/18.
(5) اختُلف في بيان المُراد من الخطاب في هذه الآية على ثلاثة أقوال، الأوّل: أنّها خطاب للحاضرين عند المُوصي، والثّاني: أنّها خطابٌ لأولياء اليتامى، والثّالث: أنّها خطاب للأوصياء أمروا بأداء الوصيّة، يُنظر: الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 9/505، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/376، والظّاهر أنّها خطاب عامٌّ يشمُل كلّ من يدخل تحته من هذه الأصناف وغيرهم.

يأكلونَ في بطونهم نارًا تصطلي، ويبلعون جمرًا يتلظّى، يقطّع الأمعاء، ويضاعف الألم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الإنشاء الطّلبيّ بصيغة المضارع المَسبوق بلام الأمر:

تحذير الأوصياء من أكل أموال اليتامى ظلمًا

افتُتح الخطاب في هاتين الآيتين الكريمتين بالأسلوب الإنشائي الطّلبيّ الأمر بالفعل المضارع المسبوق بلام الأمر في الفعل ﴿وَلْيَخْشَ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ﴾، وجاءت هذه الصّيغة لتنبيه المُتلقّي لما سيأتي بعدها، وشدِّ انتباهه له، فيجعله مُتيقّظًا لذلك مُنتظِرًا ما أُمر بالخشية منه على طريقة القرآن الكريم في التّنبيه ترغيبًا وترهيبًا.

وتكمن بلاغة هذا الخطاب بالأمر في رعاية حقوق اليتامى والضُّعفاء، وحماية حقوقهم بتخويف أولياء اليتامى وتحذيرهم من الحال نفسها لأبنائهم وذريّاتهم، وهم على فراش الموت يستحضرون هذه الصّورة، وهم يمنعون اليتامى حقوقهم، فصيغة الأمر نقلتِ الأولياء والأوصياء على اليتامى الَّذين بين أيديهم إلى حال ذرّيّتهم بعد موتهم، قال الرَّازيّ: " هذا أَمرٌ لأَولياء اليتيم، فكأَنَّه تعالى قال: ولْيَخشَ مَن يخافُ على ولده بعد مَوته أَن يُضيّع مال اليتيم الضَّعيف الَّذي هو ذُرِّيَّةُ غيره إذا كان في حجره، والمقصود من الآية على هذا الوجه أَن يَبعثَهُ ﷺ على حِفظ ماله، وأَن يُترَكَ نَفسه في حفظه والاحتياطُ في ذلك بمنزلة ما يُحِبُّهُ مِن غيره في ذُرِّيَّته لو خَلَفَهم وخَلَفَ لهم مالًا... فجعل تعالى آخِر ما دعاهُم إِلى حفظ مال اليتيم أَن يُنَبِّهَهُم على حال أَنفُسهم وذُرِّيَّتِهم إِذا تَصَوَّرُوها، ولا شكَّ أَنَّه

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 3/58.

من أَقوى الدَّواعي والبواعث في هذا المقصود"[1]، حتَّى يخافوا على ذرّيّتهم، ويقدِّروا ذلك في أنفسهم، ويصوّروه حتّى لا يجسروا على خلاف الشّفقة والرّحمة[2].

فائدة الإيجاز بحذف المفعول به:

في الإيجاز بالحذفِ ترسيخٌ لمخافة الله تعالى، وعقابه في الدّنيا

من بلاغة الآية الكريمة الإيجاز بحذف المفعول به للفعل ﴿وَلْيَخْشَ﴾، وهو الاسم الكريم (اللّه)، في قوله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا﴾ [النّساء: 9]، والتَّقدير: وَلْيَخْشَ اللهَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ، ويحتمل التَّقدير غير الاسم الكريم أيضًا لتذهبَ النَّفسُ في تقديره كلّ مَذهَب مُحتَمل، قال ابن عطيَّة: "مفعول (يخشى) محذوفٌ لدلالة الكلام عليه، وحسن حذفه من حيث يتقدَّر فيه التّخويف باللّه تعالى، والتّخويف بالعاقبة في الدّنيا، فينظر كلّ متأوِّل بحسب الأهمّ في نفسه"[3] ممَّا يخشى أَنْ يُصيب ذُرِّيَّته من بعده، وبهذا الحذف تحقّقَت فضيلة الإيجاز، فضلًا عن تنبيه المُتلقِّي إلى البحث عن المحذوف، فيجعله يتجاوب مع ما يقرأ، فترسخ المعلومة في نفسه، وهذا مَطلَب من مطالب الحذف في القرآن الكريم.

إيثار التَّعريف بالاسم الموصول وصلته:

التّعريف بالاسم الموصول أفاد العموم، وصوَّر حال الذّرّيّة

لَمَّا كان المُراد من الآية الكريمة تحذير الأوصياء على اليتامى من ظلمهم، وأكل أموالهم بتصوير حالهم بعد موتهم، كان المناسب لهذا التّحذير إيثار التَّعريف بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ دون غيره في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ﴾، لِمَا في التّعريف بالاسم الموصول من إفادة العموم؛ لأنَّه أريد به

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 9/505.
(2) الزّمَخْشري، الكشّاف: 1/478.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/13.

أفراده جميعًا تناولًا وحكمًا، فضلًا عن ذلك أوثر التّعبير بالاسم الموصول لما في صلته من بيان حال ذرّيّتهم من بعدهم، وهو بذلك جدير بإيقاع الخشية في قلوبهم، فجيءَ بالموصول؛ "لأنَّ الصِّلة لمَّا كانت وصفًا مفروضًا حَسُنَ التَّعريفُ بها إذ المقصودُ تَعريفُ مَن هذه حالُهُ، وذلك كافٍ في التَّعريف للمُخاطَبِينَ بالخشيةِ إذ كُلُّ سامعٍ يعرِفُ مضمونَ هذه الصِّلةِ لو فرضَ حصولها لهُ، إذ هي أَمرٌ يتصوَّره كُلُّ النَّاس"[1].

إيثارُ التَّعبير بأداة الشَّرط ﴿لَوْ﴾:

التعبير بـ (لو) توسيع لدائرة الداخلين في فرض الشّرط

في قوله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [النّساء: 9]، شرطٌ وجوابُه، فأداة الشّرط: ﴿لَوْ﴾، وفعل الشّرط: ﴿تَرَكُواْ﴾، وجواب الشّرط: ﴿خَافُواْ عَلَيْهِمْ﴾، وجاء الشّرط مُقترنًا بالأداة (لو) مع الفعل ﴿تَرَكُواْ﴾ الدّالّ على المشارفة مَجازًا، فالمعنى "وليخش الّذين صفتهم وحالهم أنّهم لو شارفوا أن يتركوا خلفهم ذرّيّة ضعافًا، وذلك عند احتضارهم خافوا عليهم الضَّياع بعدهم لذهاب كافلهم وكاسبهم"[2].

وأوثِرَ التَّعبيرُ بأداة الشَّرط ﴿لَوْ﴾ دون غيرها من أَدوات الشَّرط؛ لأَنَّها الأَداة الصَّالحةُ لِفَرض الشَّرط من غير تَعَرُّض لإمكانه، فَيَصدُقُ معها الشَّرط المُتَعَذِّرُ الوقوعِ والمُستَبعَدُهُ والمُمكِنُهُ، فحتَّى الَّذين بلغوا اليأس من الولادة، ولهم أَولادٌ كبارٌ أَو لا أَولاد لهم، يدخلونَ في فَرض هذا الشَّرط؛ لأَنَّهم لو كان لهم أَولادٌ صغارٌ لخافوا عليهم، والَّذين لهم أَولادٌ صغارٌ أَمرُهُم أَظهرُ[3].

(1) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/252.
(2) الزّمَخْشري، الكشّاف: 1/478.
(3) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/252 - 253.

علّة اقتران ﴿لَوْ﴾ بفعل الترك:

التّخويف بالحالة الّتي لا يبقى معها مَطمَعٌ في الحياة، ولا في الذّبّ عن الذّرّيّة الضّعاف

وفي التّعبير بأداة الشّرط ﴿لَوْ﴾ مع فعل التّرك الدّالِّ على المشارفة بلاغة لا تخفى، وسرٌّ بديعٌ لطيفٌ يتمثَّل بالتّخويف بالحالة الصَّعبة للوصيّ عند الاحتضار على فراش الموت، والّتي لا يبقى معها مَطمَعٌ في الحياة ولا في الذّبِّ عنِ الذّرّيَّة الضِّعاف، وهي الحالة الّتي وإن كانت من الدّنيا إلّا أنَّها لقربها من الآخرة ولصوقها بالمفارقة صارت من حيّزها ومُعبِّرةً عنها بما يُعبَّر به عن الحالة الكائنة بعد المفارقة من التّرك[1].

نكتةُ التّفريعِ بالفاء في فعل الاتّقاء:

تقوى الله سبيلُ الخيراتِ، وحبْلُ النجاةِ، وطريقُ حفْظِ الذُّرّيات

من بديع نسيج الآية الكريمة التّفريع[2]، إذ فرَّع الأمر بالتّقوى والقول السّديد في قوله تعالى: ﴿فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ على الأمر بالخشية في أول الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ﴾، وفرَّع الأمر الثّاني على الأوّل مع أنّهما أمران متقاربان؛ لأنَّ الأمر الأوّل لمَّا عُضِّد بالحُجَّة عُدّ كالحاصل فصحَّ التّفريعُ عليه، والمعنى: فليتّقوا الله تعالى في أموال النّاس وليُحسنوا إليهم القول، وفي هذا التّفريع إشارةٌ إلى إرشاد الآباء الّذين يخشون ترك ذرّيّة ضعيفة بالتّقوى في سائر شؤونهم حتّى تُحفظ ذرّيّتهم، وتُغاث بعناية الله تعالى، ويكون في إشعارها تهديدٌ بضياع ذرّيّتهم إنْ فقدوا تقوى الله تعالى، وإشارةٌ إلى أنَّ تقوى الأصول تحفظ الفروع، وأنَّ الرِّجال الصَّالحين يحفظون في ذرّيّتهم الضِّعاف، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الكهف: 82]، فإنَّ الغُلامين حُفِظا ببركة صلاح أبيهما في أنفسهما ومالهما[3].

(1) ابن المُنيّر، الانتصاف: 1/478.

(2) التّفريع: هو "أن يرى المتكلّم أنّ المعنى الّذي يُعبّر عنه بعبارةٍ ما يتفرّعُ عنه معنًى آخر، ويرى فَنِّيًّا أنَّ من البديع في القول أن يُعبّر عمّا لاحظهُ على سبيل التّخيُّل أو الادّعاء".

(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 3/36.

بلاغة الإيجاز بحذف المفعول به:

في الاستغناء بالمذكور تفنّنٌ في تصوير الخوْف من ضياع الذّرّيّة في مسارب الحياة

من بلاغة التَّراكيب في قوله تعالى: ﴿وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ﴾ الإيجاز بالحذف، إذ حُذِفَ المفعول به للفعل ﴿خَافُواْ﴾ إيجازًا واختصارًا،؛ لِتذهبَ النَّفسُ في تقديره كلَّ مذهب، ولِتَفنّنَّ في تصوير الخوف من المصير المحتوم الّذي يَؤُول إليه أمرُ الضِّعاف في هذه الحياة، فيمكن أن يُقدَّر بـالفقر، والضَّياع، والهيام، والتَّشرُّد في مسارب الحياة ومسالكها المُتشعِّبة من دون كافلٍ يَكفُلهم، أو مُدبِّر يُدبِّر شؤونَهم[1].

التّناسب السّياقيّ لكلمة ﴿ضِعَٰفًا﴾:

في اصطفاء لفظ (ضعافا) إظهارٌ لشِدَّةِ الضَّعْفِ والحاجة

من جماليات التَّعبير القرآنيّ التَّناسب الدَّقيق للألفاظ مع السِّياق، من ذلك مُناسبة كلمة ﴿ضِعَٰفًا﴾ للسِّياق العامِّ ومحور السُّورة الكريمة، فهذه اللَّفظة لم تَرد بهذه الصِّيغة إلَّا في هذه السُّورة في قوله تعالى: ﴿وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ﴾، وقد جاءت على وزن (فِعال) الَّذي يعني الاشتمال والاحتواء[2].

وهذا يدُلُّ على تناسبها مع محور السّورة، بمعنى أنَّ الضِّعاف بحاجة ماسَّة إلى من يرعاهم ويحتويهم ويشمُلهم برعايته، فإنَّ اللَّفظة مع حركة الكسر الواقعة على الحرف الأوّل أظهرت شدَّة الضَّعف والحاجة، وكأنَّ الضَّعف يلفّهم ويشملهم من الجوانب والاتِّجاهات جميعها كالغطاء واللِّحاف، وقد جاءت في سياق الدَّلالة على الوصف لا على الكَمِّ كونها من صيغ الجموع[3].

فضلًا عن ذلك فهذه اللَّفظة تجعل الوصيَّ يتصوَّر ذرّيّته وهي

(1) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 2/166.
(2) السّامرائّي، معاني الأبنية في العربيّة، ص: 110.
(3) غازي، التّناسب في سورة النّساء، ص: 208.

ضعيفة لا حيلة لها ولا نصير، وهذا يقرِّر معنى الخوف في الآية الكريمة، ويرسم مع الضَّمير (الهاء) في ﴿خَلۡفِهِمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا﴾ صورة مُستقبليَّة كاملة أمام أعينهم لما سيحصل لذرّيّتهم، فهي تبعث في نفوسهم الشّفقة والتَّرحم على اليتامى، وتهيّج المشاعر الإنسانيّة في قلوبهم ممَّا يجعلهم يتحذَّرون من ظلم اليتامى والضُّعفاء في المجتمع، وأكل حقوقهم.

بلاغة الإطناب بطريق الاعتراض[1]:

من عناية الشارع بأمر اليتامى كرَّرَ تحذيرَ الأوصياء مِن أكل مالِ اليتامى

جاءت هذه الآية الكريمة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾ "جُملةً مُعترِضةً تفيدُ تَكرار التَّحذير من أكل مال اليتامى، جَرَّتهُ مناسبةُ التَّعرُّض لقسمة أَموال الأَموات؛ لأَنَّ الورثة يَكثُرُ أَن يكون فيهم يتامى لكثرة تزوُّج الرِّجال في مُدَّة أَعمارهم، فقلَّما يخلو مَيِّتٌ عن ورثةٍ صغارٍ، وهو مُؤذِنٌ بشدَّة عناية الشَّارع بهذا الغرض، فلذلك عاد إليه بهذه المناسبة"[2].

فائدة التوكيد في الجملة الاعتراضية:

في التَّوكيد تحذيرٌ من التَّعرّض لأموال اليتامى؛ وتشديدٌ في النَّهي من الوقوع فيه

ولتأكيد مضمون هذه الجملة الاعتراضيّة وتقريرها جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾ بالأسلوب الخبريّ المُؤكّد بـ ﴿إِنَّ﴾، والتَّعريف بالموصول فضلًا عن أسلوب القصر بـ (إنَّما)، والعطف بعذابٍ عامٍّ شاملٍ.

علّة التَّعريف بالاسم الموصول وصلته:

من البلاغة في الآية الكريمة إيثار التَّعريف بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ دون غيره من المعارف، مع تقديمه على المسند في قوله

(1) الاعتراض: هو " أن يُؤتى في أثناء الكلام، أو بين كلامين مُتّصلين معنى بجُملة أو أكثر لا محلّ لها من الإعراب، لنكتةٍ سوى رفع الإبهام" الجرجانيّ، التّعريفات، ص: 24.

(2) ابن عاشور: التّحرير والتّنوير: 4/254.

تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾، لِمَا في التّعريف بالاسم الموصول من إفادة العموم، وإن كان مخصوصًا بالَّذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا؛ ويخرج منه بذلك من يأكل بعضه للحاجة أو غيرها، فضلًا عن ذلك أوثر التّعبير بالاسم الموصول وتقديمه على المسند لما في صلته ﴿يَأۡكُلُونَ﴾ من استحضارٍ لصورة أكلهم لأموال اليتامى وتجدُّدها، ليتمَّ التَّسجيل عليهم بفعلهم القبيح هذا، ممَّا يجعل المتلقّي يتشوَّف للمُسند الّذي يصوّر الحكم عليهم ويسجِّله بأبلغ صورة.

في التعريف بـ (الذين) دلالةُ العموم، والتسجيلُ بالفعل القبيح المُتمثِّل بأكل أموال اليتامى

بلاغة الاستعارة المكنيّة في الفعل ﴿يَأۡكُلُونَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ شبَّه أموال اليتامى بطعام يُؤكل، ثمّ حذفه، وأبقى شيئًا من لوازمه ممّا هو من أبرز خصائص الطّعام وهو الأكل[1] على طريقة الاستعارة المكنيّة، وقد حملها ابن عاشور على التّصريحيّة بقوله: "والأَكلُ استعارةٌ للانتفاع المانع مِن انتفاع الغير وهو الملكُ التَّامُّ، لأَنّ الأَكلَ هو أَقوى أَحوال الاختصاص بالشَّيء؛ لأَنَّه يُحرِزُه في داخل جسدِه، ولا مَطْمَعَ في إِرجاعه"[2].

أكلُ مال اليتيم من أقبح صور الأكل الحرام

وفي هذه الاستعارة مبالغة في تشنيع فعلهم بأخذ أموال اليتامى ظلمًا وبهتانًا بطريق الأكل؛ لأنَّ العرب كانت تتذمّم بالإكثار من الأكل، وتعدّ من البطنة المساويّة للبهيميّة، فكأنّ أكل مال اليتيم من أقبح الأفعال وأشدّها تحريمًا[3].

بلاغة إيثار فعل الأكل:

وخصَّ التّعبير بفعل الأكل؛ لأَنَّه أعمُّ وجوه الانتفاع بالمال وأهمّها،

كسوة الباطن أهمُّ أسباب جمع المال

(1) صافي، الجدول: 4/432.
(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/221.
(3) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 2/151.

وهو كسوة الباطن، وأهمُّ ما يجمع المال من أجله، وإلَّا فسائر الانتفاعات مثله، كأن يأخذ مال اليتيم ليشتري به دارًا أو حاجة أخرى، بل وأشدُّ منه وأعظم لو أتلف مال اليتيم بصورة أخرى كالإحراق والإغراق وغيرهما[1].

إيثار التَّعبير بالفعل المضارع ﴿يَأۡكُلُونَ﴾:

من قبيح صور الظّلم، وعجيبها تجدّدُ أكل أموال اليتامى، والإصرار عليها

من أسرار البيان القرآنيّ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ إيثار التَّعبير بالفعل المضارع ﴿يَأۡكُلُونَ﴾؛ لإفادة تجدّد أكلهم لأموال اليتامى واستمرارهم ممَّا يزيد من تقبيح فعلهم وتشنيعه، فالفعل المضارع ﴿يَأۡكُلُونَ﴾ يقتضي الأكل المرّة بعد المرّة، وهذا ما يدعو إلى الاستنكار والتّعجب من فعلهم بأكل أموال اليتامى الضُّعفاء.

في التَّعبير بالفعل المضارع؛ استحضارٌ لصورة الأكل ظُلمًا والتّعجيب منها

فضلًا عن ذلك فقد أوثر التَّعبير بالفعل المضارع؛ لاستحضار صورة الأكل والظّلم والتّعجيب منها، وذلك بإظهار صورتهم الشّنيعة للمتلقّي، فهذا الفعل "صوَّر الأكل وحقّقه"[2].

بلاغة الإطناب بالاحتراس التَّكميليّ:

من البلاغة في الآية الكريمة الإطناب بالاحتراس بكلمة ﴿ظُلۡمًا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا﴾، فهذه الكلمة جاءت لتدُلَّ على أنَّ مال اليتيم قد يُؤكَل في غير ظُلم، من ذلك ما تَقَدَّمَ ذكره في هذه السُّورة الكريمة من أَنَّ للوليِّ المُحتَاجِ أَن يأكُل من ماله بالمعروف عند الحاجة الشَّديدة إليه ممّا يسدُّ به رمقه وحاجته وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾ [النِّساء: 6]، فجاء هذا الاحتراس تكميلًا للمعنى ودفعًا لتوهّم قد يرد بأنَّ الوعيد والتّحذير يشمل كلَّ من يأكل من أموال اليتامى، بل أخرج من يأكل بالحقِّ كالأكل بالمعروف لحاجة أو غيرها من الأسباب[3].

عند الحاجة الملحّة يحقّ للوليّ الأخذ من مال اليتيم استحقاقًا؛ وذلك أكلٌ في غير ظُلمٍ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/14.
(2) البقاعيّ: نظم الدُّرر: 5/202.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 9/506.

فكلمة ﴿ظُلْمًا﴾ حدّدت طبيعة التّجاوز على مال اليتيم، وهذا مُرتبطٌ بالمآل الحقيقيّ بما عقَّب به في نهاية الآية ﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾، وهذا هو المُرتكز التّتميميّ لختام بنية الآية الكريمة، قال الآلوسيّ مُبيّنًا علّة الاحتراس: " وعلَّق الوعيد على الأكل بذلك؛ لأنَّه قد يأكل مال اليتيم على وجه الاستحقاق، كالأجرة والقرض مثلًا فلا يكون ظُلمًا، ولا الآكل ظالمًا"[1].

بلاغة أسلوب القصر بـ (إنَّما):

في القصر بـ (إنَّما) تخويفٌ للأوصياء على أموال اليتامى وترهيبٌ من أكلها ظلمًا

من بلاغة التّراكيب في الآية الكريمة القصر بـ ﴿إِنَّمَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾، فالمقصورُ في الآية (المأكول)، والمقصور عليه (النَّار)، فقصر الله تعالى صفة الأكل على الموصوف بها وهي النَّار، فهم لا يأكلون في بطونهم شيئًا آخر غير النّار.

وفي هذا القصر بلاغة لا تخفى تتمثَّل في المبالغة في التّرهيب من أكل مال اليتيم، والتّأكيد أنّ هذا الأكل مصيره النَّار، فهذا الأسلوب البلاغيّ جاء تخويفًا للأوصياء على أموال اليتامى وتنفيرًا لهم من هذا الفعل الشّنيع ببيان أنَّ أكل أموال اليتامى ظلمًا في الدُّنيا سينتهي بنارٍ تتأجّج في بطونهم وتمزّقهم يوم القيامة[2].

التّصريحُ بعاقبة أكل أموال اليتامى ظلمًا من تمام العناية الرّبّانيّة باليتامى

وفيه عناية ربَّانيَّة باليتامى، ودفاعٌ إلهيٌّ عنه ببيان نتيجة أكل أموالهم ظُلمًا، لذا جاءت ﴿إِنَّمَا﴾ لتُظهر لنا العذاب الإلهيَّ لمرتكب هذا الذّنب ظهورًا تشمئزّ منه النّفس، وترتعدُ له الفرائص، بنفي الأكل عن الأشياء جميعها، وإثباته للنّار على وجه المبالغة والتّأكيد، فهم يأكلون النّار فقط ولا شيء غير النّار، وهذا مُستفاد من كون القصر أحد مُكوّنات المغايرة؛ لأنَّ فيه إثباتاً لما يُذكَر بعد ﴿إِنَّمَا﴾

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 2/424.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 7/26.

ونفيًا لما سواه، أي: لا يأكلون إلا ناراً ولا يأكلون غيرها[1]، وبهذا تتوضّح وظيفة القصر الّذي يُعدُّ مرجعيَّةً دلاليَّةً للنّصِّ، لما يُحقّقه من لزوم التَّرابط، وما يُقدّمه من دلالة تنشأ من خلال وجوب الارتباط بين طرفيه، على النّحو الّذي بيّناه.

علّة التعبير بـ ﴿إِنَّمَا﴾ دون (إنّ):

المجيء بـ (إنّما) لتقييد حصر أكلهم في النار

لما كانت العقوبة محقَّقة، والتّشكيك في كون هذه العقوبة هي: (أكْل النّار) كان الأصل أن يؤتى فيه بـ (إنَّ)، فيقال: إنَّهم يأكلونَ في بطونهم نارًا، لكن جيء بـ ﴿إِنَّمَا﴾ المخصّصة بنفي الشكّ في اختصاص المخبر عنه، المقتضية للحصر؛ لأنه روعي فيه كون أكلهم من حيث هو معلوم لعلمنا أنهم يأكلون شيئًا بالإطلاق وجيءَ بـ ﴿إِنَّمَا﴾ لتقييد حصر أكلهم في النار.

ادخال (إنما) للإخبار عن أنَّ العذاب بأكل النار نزل منزلة المعلوم تحقيقًا له

وذُكِرَ أنه إنْ لم يُرد بأكلهم النَّار حقيقة بل مُطلق تذميمهم على ذلك، وأنَّهم مُجازَون عليه فهو معلوم؛ لأنّا نعلم نصًّا أنَّ أكْلَ المال ظلمًا مُوْجِبٌ العقوبة مطلقًا وإنْ أريد أنّهم يعذبون بأكل النار حقيقة فهو غير معلوم لنا لكنه نزل منزلة المعلوم تحقيقًا له حتى صار كالمشاهد الذي لَا يخالف أحد فيه فيكفي في الإخبار عن وقوعه أو في شيء من غير تأكيد فلم يبق إلا الحصر فأدخلت (إنّما) دليلًا عليه[2].

بلاغة المجاز المُرسَل في التّنبيه على أداء حقوق الضّعفاء:

مبالغةٌ في التّرهيب من أكل مال اليتيم ببيان عاقبته

في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ مجازٌ مُرسَلٌ في كلمة ﴿نَارًا﴾ علاقته المُسَبَّبِيَّة، فقد أُطلق المُسَبَّب ﴿نَارًا﴾، وأراد به السَّبب (مال اليتامى)؛ لأنَّ النَّار لا تُؤكل وإنَّما يُؤكل مُسَبِّبها، والآيل إليها، وهو مال اليتيم الّذي يأخذونه ظُلمًا من اليتامى، وبهذا أوقع المُسَبِّب (النَّار) نيابةً عن السَّبب (المال الحرام) الّذي يُوصِل إلى

(1) السّامرائّي، معاني النّحو: 1/328.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/9.

النّار باعتباره النّتيجة الّتي سيؤول إليها مَن يأكل مال اليتامى ظُلمًا، ويجوز أن تكون العلاقة باعتبار ما سيكون في المستقبل بتسمية الشَّيء بما سيؤول إليه في المُستقبل[1].

فعبَّر بلفظ النَّار مَجازًا لأنَّهم سيؤولون إليها، ويأكلون منها يوم القيامة؛ للمبالغة في المعنى المُراد وهو التَّهديد، والوعيد، والتَّخويف، والتّرهيب، قال النَّحاس: "هذا مَجازٌ في اللَّفظ، وحقيقتُه في اللُّغة أنَّه لمَّا كان ما يأكلون يؤدّيهم إلى النَّار كانوا بمَنزِلة من يأكل النَّار، وإن كانوا يأكلون الطَّيّبات"[2]، وممَّا يُقرِّر هذا المعنى التَّنكير في لفظ ﴿نَارٗا﴾ الّتي دلَّت على فظاعتها.

براعة الإطناب بالتّتميم بذكر البطون:

في التتميم مبالغةٌ في وصْفِ إجرامهم، وبشاعة ذنبهم

من بلاغة الآية الكريمة الإطناب بالتَّتميم[3] بذكر البطون في قوله تعالى ﴿إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗا﴾، مع أنَّ الأكل لا يكون إلّا في البطون؛ فهي محلُّ الأكل ومستقرُّه؛ للتَّأكيد والمبالغة في وصف إجرامهم بأكل أموال اليتامى وجشعهم نحوها، ولتَجسيدِ بشاعة الذَّنب المُقترَف بأكل هذه الأموال؛ حتَّى تتأكَّدَ عِند السَّامع بشاعةُ هذا الجُرمِ بمزيدِ تصويرٍ، ولأجل تأكيد التَّشنيع عليهم، خَصَّ الأكل لأنَّه أبشع الأحوال الّتي يُتناول مالُ اليتيم فيها[4].

التَّعريض بذِكر البُطون لبيان دناءتهم وسُقوط هِمَمِهم

وأفاد هذا التَّتميم بذكر البطون التَّعريض بهم، إذ "نَبَّه على الحامل على أَخْذ المال؛ وهو البطنُ الَّذي هو أَخَسُّ الأَشياء الَّتي يُنتَفَعُ بالمال لأَجلها؛ إذ مآلُ ما يُوضعُ فيه إلى الاضمِحلال والذَّهاب

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/531، والآلوسّي، روح المعاني: 2/425.
(2) معاني القرآن، النّحاس: 2/37.
(3) التَّتميم: وهو "أن يُؤتى في كلام لا يوهم خلاف المقصود بفضلة تفيد نُكتة كالمبالغة" القزوينيّ، الإيضاح، ص: 212.
(4) ابن المُنيّر، الانتصاف: 1/479.

في أَقرب زمانٍ"[1]، وبهذا عرَّض بذِكر البُطون؛ لخِسَّتهم، واتّضاع أمرهم، وسُقوطِ هِمَمِهم، والعربُ تُذَمُّ بذلك[2].

وجْهُ فَهْمِ غير المنطوق به من المنطوق:

يُلمحُ السياقُ إلى تحريمِ مال اليتيم وإحراقه وإهلاكه

من دقائق التَّعبير القرآنيّ أنَّه يُفهم من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾ بدلالة سِياق الكلام ومقصُوده، تحريم مال اليتيم وإحراقه وإهلاكه، ووجوب المحافظة عليه وحسن معاملة اليتيم ورعايته؛ لأنَّ النَّار لا تُؤكل إنَّما إحراقها حتميّ[3].

وتتضمّن الآية وعيدًا لمن خالف أمر الله في اليتامى ممَّا يوحي بمنزلة اليتيم وقدره عند الله تعالى ذلك القدر الّذي توحي به الآيات الّتي تَذكرُ اليتيم ووجوب حسن معاملته.

وقُرِئت ﴿وَسَيُصۡلَوۡنَ﴾؛ بالبناء للمجهول أيضًا: ﴿وَسَيَصۡلَوۡنَ﴾[4]؛ لأنّ الفاعلَ معروفٌ، والأهمُّ الانشغال بالفعل، وفي هذا البناء مزيدٌ من التّهديد والوعيد.

سرُّ دخول السّين في فعل الصَّلي دون الأكل:

أكلُ ما لا خير فيه من الأموال التي هي بمثابة النّار آنيٌّ، وثَمَّ جزاءٌ في المستقبل

ذُكِرَ لفظ ﴿يَأۡكُلُونَ﴾ غفلًا من علامة الاستقبال، وعطف عليه ﴿وَسَيَصۡلَوۡنَ﴾ مقرونًا بالسّين التي هي علامة الاستقبال؛ ليدلَّ على أنّهم إنّما يأكلون الآن ما لا خير لهم في أكله؛ لأنّه في قبحه، وما يترتَّب عليه من العقاب كالنار، أو لأنه سببٌ لدخول النار، ثم بيَّن ما يُجزَون به في المستقبل الذي يشير إليه المجاز في أكل النار فقال: ﴿وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾[5].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/531.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 9/506.
(3) الغزاليّ، المُستصفى، ص: 264.
(4) وهي قراءة ابن عامر وشعبة من العشرة، ينظر: ابن الجزري، النشر: 2/247.
(5) رضا، تفسير المنار: 4/329.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الخشية والخوف، والتقوى:

الخشية خوفٌ يشوبُه تعظيمٌ، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يُخشَى منه[1]، وحقيقتُها طمأنينةٌ في القلب تبعث على التّوقّي[2]، أمّا الخوف فهو توقُّع مكروه أو فوت محبوب[3]، وهو ظنٌّ لا يقين معه، وضدّه الأمن، وتدور مادّته حول الذُّعر والفَزع[4]. و"تفترق الخشية عنِ الخوف، بأنَّها تكون عن يقينٍ صادقٍ بعظمة من نخشاه، كما يفترق الخشوع، بأنَّنا لا نخشع إلّا عن انفعالٍ صادقٍ بجلال من نخشع له، أمّا الخوف فيجوز أن يحدُثَ عن تسلّط بالقهر والإرهاب، كما أنَّ الخضوع قد يكون تكلُّفاً عن نفاقٍ وخوف تقيَّةٍ ومداراة"[5]، قال الرّاغب: إن قيل: لِمَ قال: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ﴾، ثمّ قال: ﴿فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾؟ وهل بين الخشية والتّقوى فرق؟قيل: الخشية الاحتراز من الشّيء بمقتضى العلم، ولذلك وُصف به العلماء، في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: 28]، والتّقوى جعل العبد نفسه في وقاية ممّا يخشاه، ولذلك قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة: 21]، فالخشية مبدأ التّقوى، والتّقوى غاية الخشية، فأمر الله تعالى بمراعاة المبدأ والنّهاية، إذ لا ينفع الأوّل دون الثّاني. ولا يحصل الثّاني من دون الأوّل"[6]، وقال محمّد رشيد رضا: "فإن كان بين الخوف والخشية فرق، فالأقرب عندي أن تكون الخشية هي الخوف، في محلّ الأمل، ومن دقّق النّظر في الآيات الّتي ورد فيها حرف الخشية، يجد هذا المعنى فيها، ولعل أصل الخشية من مادّة خشت النّخلة تخشو، إذا جاء تمرها دقلًا (رديئًا)، وهي ممّا يرجى منها الجيّد"[7].

والخشية محمودةٌ في كلِّ مَواضِعها، أمّا الخوف فمذمومٌ لما يلحقه من أمارة الظّنّ وعدم الأمن، والخشية تكون من عِظَم المَخْشِيّ منه، وإن كان الخاشِي قويّاً، والخوف يكون

(1) الراغب، المفردات: (خشي).
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 2/170.
(3) الجرجانّي، التّعريفات، ص: 101.
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (خَافَ).
(5) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 11/332، وابن كَثير، تفسير ابن كَثير: 1/42.
(6) الراغب، تفسير الرّاغب: 3/1116، وما بعدها.
(7) رضا، المنار: 4/322.

من ضعف الخائف، وإن كان المَخوف أمراً يسيراً[1]؛ والخوف تألّم النّفس من العقاب المُتوقّع، بسبب ارتكاب المَنهيّات، والتّقصير في الطّاعات، وهو يحصل لأكثر الخلق، وإن كانت مراتبه متفاوتة جدًّا، والمرتبة العليا منه لا تحصل إلّا للقليل[2].

ضِعاف وضُعَفاء:

ضِعاف جمعٌ على وزن فِعال، وضُعَفاء جمعٌ على وزن فُعلاء، وكلتا الصّيغتين جمع لضعيف على وزن فعيل، والأخير وصفُ ذَكَر عاقل بمعنى فاعل[3].

قال الأستراباذيّ: وأكثر ما يجيء (فُعَلاء) في هذا الباب - يعني فاعلاً كجاهل - وغيره، إذا دلَّ على سجيَّة مدح أو ذمّ كجهلاء وجُبناء وشُجعاء[4]، ويقع (فُعَلاء) في الأمور المعنويّة، ومنه لفظ (ضُعفاء)، فهو لا يُراد به الضّعف البدنيّ؛ وإنّما يُراد به الضَّعف الّذي ضدّ القوّة، وهو الضّعف المعنويّ، وثمَّة آية جاء وصف الذّرِّية فيها بالضُّعفاء، في قوله تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ﴾ [البقرة: 66]، إذ قُصد بـ ﴿ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ﴾ الضّعف المعنويّ، أي: عدم القيام بالأمر[5]، أمّا (الضِعَاف) فيُراد منهم الضُّعف البدنيّ، وفسَّره فاضل السَّامرائيّ بالضَّعف المادّيّ، أي: محتاجين إلى المال فقراء، كقوله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [النّساء: 9]، والمقصود بـ ﴿ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا﴾: الأولاد الصّغار[6].

(1) الزّركشّي، البرهان: 4/78.
(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 217.
(3) السّامرائي، معاني الأبنية، ص: 165.
(4) الأستراباذيّ، شرح الرّضي: 2/157 - 158.
(5) مصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن، ص: 369.
(6) السّامرائّي، معاني الأبنية، ص: 168.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس، سورة آل عمران من الآية 141 إلى الآية 23 من سورة النساء
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة آل عمران من الآية 141 إلى الآية 23 من سورة النساء [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 6 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-58-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 6 : سورة آل عمران من الآية 141 إلى الآية 23 من سورة النساء.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-58-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-2475776 بتاريخ 2023/03/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»